

المبحث الرابع
أسلوب الترغيب في بر الوالدين
والترهيب من عقوقهما

وصايا قرآنية

الآية الأولى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ لِلَّذِينَ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١٥١ وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ١٥٢ ﴾
[الإسراء] .

الآية الثانية :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢١ ﴾ [العنكبوت] .

الآية الثالثة :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ٢٢ ﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرٍّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٣ ﴾ [لقمان] .

قال أحد الشعراء:

أَغْرَى امْرُؤٌ يَوْمًا غَلَامًا جَاهِلًا
قال ائْتِنِي بِفُؤَادِ أُمِّكَ يَا فَتَى
فَمَضَى وَأَغْرَزَ خَنْجَرًا فِي صَدْرِهَا
لَكِنَّهُ مِنْ فَرْطِ سُرْعَتِهِ هَوَى
نَادَاهُ قَلْبُ الْأُمِّ وَهُوَ مُعَقَّرُ
فَكَانَ هَذَا الصَّوْتُ رَغَمَ حُنُوِّهِ
فَلَدَرَى فَظِيْعَ خِيَانَةٍ لَمْ يَأْتَهَا
وَارْتَدَّ نَحْوَ الْقَلْبِ يَغْسِلُهُ بِمَا
وَيَقُولُ يَا قَلْبَ انْتَقِمْ مِنِّي وَلَا
وَاسْتَلْ خَنْجَرَهُ لِيَطْعَنَ صَدْرَهُ
نَادَاهُ قَلْبُ الْأُمِّ قَفْ ، وَلَدَى ، وَلَا

بَنَقُودِهِ حَتَّى يَنَالَ بِهِ الْوَطْرُ
وَلَكِ الْجَوَاهِرُ وَالْدِرَاهِمُ وَالذُّرَرُ
وَالْقَلْبُ أَخْرَجَهُ وَعَادَ عَلَى الْأَثَرِ
فَتَدَخَّرَجَ الْقَلْبُ الْمُعَقَّرُ إِذْ عَثَرَ
وَلَدَى حَبِيبِي هَلْ أَصَابَكَ مِنْ ضَرَرٍ
غَضَبُ السَّمَاءِ عَلَى الْوَلِيدِ قَدْ انْهَمَرَ
وَلَدٌ سِوَاهُ مِنْذُ تَارِيخِ الْبَشَرِ
فَاضَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ سَيْلِ الْعَبْرِ
تَغْفِرُ فَإِنْ جَرِيمَتِي لَا تَغْتَفِرُ
حَنْقًا وَيَبْقَى عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ
تَطْعَنُ فُؤَادِي مَرَّتَيْنِ عَلَى الْأَثَرِ

أسلوب الترغيب في بر الوالدين

والترهيب من عقوقهما

تمهيد :

إن علاقة هذا الفصل بتربية الطفل و تبرز أهميته لارتباطه مباشرة بكل إنسان ، ذكر أم أنثى ؛ وذلك لما ورد من الأحاديث الشريفة التى توضح أن لبر الوالدين كبير الأثر فى بر الأبناء ، وبالتالي إذا أردنا من أطفالنا أن يبرونا ، فهذا يتطلب منا - سواء كنا عذاباً أم متزوجين - المسارعة إلى بر الوالدين ، كما نصح بذلك رسول الله ﷺ .

فقد روى الحاكم^(١) عن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ أنه قال : «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك محقاً أو مبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد على الخوض» .

وروى الطبرانى بإسناد حسن عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «برّوا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفّوا تعف نساؤكم» .

فإذا اتضح لنا سبب عقوق الأبناء ، وهم فى مرحلة الطفولة ، التى تتميز بقوة سيطرة الوالدين ، وعمق فطريتهما ، فإن الطريق السليم لتقويم الطفل ، وسلوكه سلوك الأبرار ، وسيره بشكل سوى ، هو أن نعدّل من سلوكنا ، وأن نغير من علاقتنا مع والدينا ، نحو : البر ، والطاعة ، والابتعاد عن العقوق بشتى ألوانه وصوره؛ لذلك حال الوالدين جرى إلى الأبناء بالشعور وبلا شعور وهى سنة إلهية كما أخبر النبى ﷺ : «اعمل ما شئت كما تدين ثُدان» . رواه عبد الرزاق فى مصنفه .

(١) وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح ، المستدرک (٤ / ١٥٤) .

وإذا تأمل الإنسان من حوله ، لوجد مصداق هذا القول ، ورأى بأم عينيه أن الأب العاق لوالديه سينتج ولدًا عاقًا فهي قاعدة مطردة منتظمة لهذا قلنا : إنه لا بد من تعديل سلوك الآباء مع والديهم حتى يتم تعديل سلوك الأبناء معهم .

ويبقى سؤال : كيف يكون الإنسان بارًا؟ وما هي أسس البر؟

وهل البر عند حضور الوالدين؟ أم في غيابهما أيضًا؟ وهل يتعدى إلى ما بعد وفاتهم كذلك؟

من خلال البحث ، والمتابعة في الأحاديث النبوية ، نجد أن هناك أسسًا للبر في حياتهما، وأسسًا للبر بعد وفاتهما ، وبذلك فتح باب البر على مصراعيه ، وامتدت فترة البر طويلاً ، وطال زمن الاستفادة وتعديل الخطأ المرتكب ، وذلك من رحمة الله بعباده ، وأى رحمة؟! والعجب كل العجب رغم كل هذه التسهيلات ، وكثرة الرحمة الإلهية ، أن نجد العقوق بين الناس منتشرًا بألوان وأشكال متنوعة - أجازرنا الله من العقوق - وهذا عين الظلم للنفس وللأبناء ، فمن لم يكن رحيماً بنفسه بأن يكون بارًا لوالديه ، فليكن رحيماً بأطفاله ؛ بأن يسارع لبر والديه حتى يوفق الله أبنائه ، وأطفاله لبره ، فينتشلهم من إثم العقوق ، وغضب الله - تعالى .

أولاً : أسس برّ الوالدين في حياتهما

الأساس الأول : ثواب البر في الدنيا والآخرة :

إن لبر الوالدين كبير الأثر في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية ؛ لهذا نجد الرسول ﷺ يحدد معالم هذا البر ، وأثره في حياة الفرد المسلم ؛ الذي إذا صلح أدى ذلك إلى صلاح المجتمع .

ويبين أن هذا البر حق واجب على الإنسان ، وليس نفلاً يتبرع به ، فقد روى أبو داود عن كليب بن منفعة ، عن جده : أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ،

من أبر؟ قال: «أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، ومولاك الذي يلي ذلك ، حقاً واجباً ، ورحماً موصولة» .

وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب ، عن النبي ﷺ قال : «إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، إن الله يوصيكم بآبائكم ، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب»^(١) . ورواه ابن ماجه أيضاً .

وروى ابن ماجه عن أبي أمامة ؓ: أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال «هما جنتك ونارك» .

وروى الترمذى، عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رضا الرب فى رضا الوالد وسخط الوالد»^(٢) .

وروى الإمام أحمد والنسائى عن جاهمة - مرفوعاً : «الزمها ، فإن الجنة تحت أقدامها»^(٣) . أى : الوالدة ، فإذا لا بد من معرفة عظم مكانة الوالدين ، وأهمية برهما .

عن أبى الدرداء ؓ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فحافظ على الباب ، أو اترك هذا» . رواه الحاكم فى مستدركه (٤/ ١٥٢) وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

أثر بر الوالدين فى الدنيا :

زيادة العمر والرزق :

روى الإمام أحمد عن أنس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : «من سرّه أن يُمدَّ له فى عمره ، ويزاد فى رزقه ، فليبرّ والديه ، وليصل رحمه» .

وروى أبو يعلى والطبرانى والحاكم (وقال: صحيح ، وأقره الذهبى)^(٤)

(١) صحيح . انظر : صحيح الجامع رقم (١٢٤٩) .

(٢) ورواه ابن حبان . انظر : سلسلة الأحاديث : الصحيحة رقم : (٥١٦) ، ورواه الحاكم فى مستدركه (٤/ ١٥٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . .

(٣) صحيح . انظر : صحيح الجامع رقم (١٩٢٤) ، ورواه البخارى فى الأدب ، والطبرانى ، والحاكم .

(٤) فيض القدير للمناوى (٩٥/ ٦) .

والأصبهاني عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال : أن رسول الله ﷺ قال : «من برَّ والديه طوبى له، زاد الله في عمره» .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل ليُحَرَمَ الرِّزْقُ بالذنب يُصِيبُهُ ولا يَرُدُّ القدرُ إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر» . رواه ابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له ، والحاكم بتقديم وتأخير ، وقال : صحيح الإسناد .
وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر» . رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

أثر بر الوالدين في الآخرة :

١- التكفير لذنوب الدنيا :

روى الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت ذنباً عظيماً ، فهل لى من توبة ؟ فقال : «هل لك من أم؟» قال : لا ، قال : «هل لك من خالة؟» قال : نعم ، قال : «فبرّها» . ورواه الحاكم بألفاظ متقاربة ، وقال : صحيح الإسناد .

وروى البخارى فى الأدب المفرد ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أتاه رجل فقال : إنى خطبتُ امرأةً فأبْتُ أن تنكحنى ، وخطبها غيرى ، فأحبَّت أن تنكحه ، فغرِثُ عليها ، فقتلتُها ؛ فهل لى من توبة ؟ قال : أمك حيَّة ؟ قال : لا ، قال : تُبُّ إلى الله - عزَّ وجل ، وتقرَّب إليه ما استطعت ، فذهبتُ ، فسألتُ ابنَ عباس : لم سألتَه عن حياة أمِّه ؟ فقال : إنى لا أعلمُ عملاً أقربَ إلى الله عز وجل من برِّ الوالدة .

٢- دخول الجنة :

روى النسائى ^(١) عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : «دخلت الجنة

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة (١/٣١٢) .

فسمعت قراءة فقلت : من هذا؟ ف قيل : حارثة بن النعمان» فقال رسول الله ﷺ :
«كذلك البر» وكان باراً بأمه ، وفي رواية أحمد : كان أبر الناس بأمه ، وإسناده
صحيح .

وروى البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما من
مسلم له والدان مسلمان ، يُضْبَحُ إليهما مُحْتَسِباً ، إلا فتَحَ الله له بابين - يعنى من
الجنة - وإن كان واحدٌ فواحدٌ ، وإن أغضب أحدهما لم يَرْضَ الله عنه حتى يرضى
عنه ، قيل : وإن ظلماه قال : وإن ظلماه .

وروى مسلم عن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ قال : «رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ،
ثم رغم أنفه : من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلم يدخل الجنة» .
قال النووى ^(١) رحمه الله : «رغم أنفه» كناية عن الذل ، كأن أنفه لصق بالرغم ،
أى : بالتراب تحقيراً وهواناً .

وقد تقدّم حديث النبى ﷺ للرجل : «هما جنتك ونارك» .

وروى أحمد بإسناد صحيح : «من أدرك والديه ، أو أحدهما ، ثم دخل النار بعد
ذلك ، فأبعده الله وأسحقه» .

وروى أحمد ، والطيالسى والحاكم بسند صحيح : «الوالد أوسط أبواب الجنة» .
وعن عروة بن مرة قال : جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، شهدت
أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت
شهر رمضان ، فقال النبى ﷺ : «من مات على هذا كان مع النبيين ، والصديقين ،
والشهداء يوم القيامة هكذا» ونصب أصبعيه «ما لم يعقّ والديه» . رواه أحمد
والطبرانى بإسنادين ، ورجال أحد إسنادى الطبرانى رجال الصحيح ، كذا قاله
الهيثمى فى المجمع (١٤٧/٨) .

(١) رياض الصالحين ، باب : بر الوالدين .

وكلنا يعلم قول النبي ﷺ: «لا طاعة لبشر في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

الأساس الثاني : تقديم بر الوالدين على الفروض الكفائية :

إن بر الوالدين فرض على كل فرد مسلم ، فرضه الله تعالى على عباده ، فلا يوازى هذا الفرض إلا فرض مثله ، وبقوته ، أى : إن الفروض العينية على كل فرد توازى فرض بر الوالدين ، مثل صلاة الفرض ، وصيام رمضان ، والزكاة ، وما علم من الدين بالضرورة ، والجهاد في سبيل الله في حالة فرضه العيني (وهو النفير العام) ، ففي مثل هذه الحالات يحاول الابن قدر استطاعته التوفيق بينهما ، فإذا عجز عن ذلك - مع بذل قصارى جهده - يقدم فرض الله العيني على فرضية بر الوالدين ؛ ولهذا قال الإمام الغزالي بعد أن ساق أحاديث بر الوالدين : «أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات»^(١).

أما في الفروض الكفائية ؛ التي إذا أقامها البعض قياماً ، يكتفى منه المجتمع المسلم ، سقط عن الباقي ، فإن فرض بر الوالدين يتقدم عليها جميعاً ، فما بالك إذا تعارض فرض بر الوالدين مع المباحات والمندوبات ؛ لهذا قال الإمام الغزالي^(٢) : «من شغله نفيه عن فرضه فهو مغرور ، ومن شغله فرضه عن نفيه فهو معذور» . ولتكن كلمة الغزالي هذه قاعدة أصيلة في حياة الإنسان ، يوازن بها الأمور ، ويجريها عند التعارض ، وسنأتى على ذلك بأمثلة :

١- تقديم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله :

روى الحاكم في مستدركه^(٣) ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي : أن جاهمة رضي الله عنه أتى النبي ﷺ ، فقال : إني أردت أن أغزو ، وجئت أستشيرك ، قال :

(١) الإحياء (٢/ ٢١٨) .

(٢) كلمة كنت أسمعها من أحد مشايخي ، ويرددها كثيراً ، وانتفعت بها كثيراً ، فجزاه الله خيراً .

(٣) المستدرک (٢/ ١٠٤) .

«ألك والدة؟» قال : نعم ، قال : «اذهب فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها» .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أى العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟، قال : «الصلاة على وقتها» ، قلت : ثم أى؟ قال : «بر الوالدين» ، قلت : ثم أى؟ قال : «الجهاد في سبيل الله» .

وقد شرح هذا الحديث أحد الأئمة الكبار ، وهو ابن حجر العسقلاني فقال :

«قال ابن التين : تقديم البر على الجهاد يحتمل وجهين :

أحدهما : التعديّة إلى نفع الخير .

والثاني : أن الذي يفعله يرى أنه مكافأة على فعلها ، فكأنه يرى أن غيره أفضل منه ، فنُبِّهه على إثبات الفضيلة فيه .

قلت - أى : ابن حجر : والأول ليس بواضح ، ويحتمل أنه قدم لتوقف الجهاد عليه ؛ إذ من بر الوالدين استئذانهما في الجهاد ؛ لثبوت النهي عن الجهاد بغير إذنهما^(١) .

وفي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : أقبل رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله - تعالى ، فقال : «هل لك من والديك أحدٌ حى؟» قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : «فتبتغى الأجر من الله تعالى؟» قال : نعم ؛ قال : «فارجع إلى والديك ، فأحسن صحبتهم» . وفي رواية لهما : جاء رجل فاستأذنه في الجهاد ، قال : «أحى والداك؟» قال : نعم ، قال : «ففيهما فجاهد» .

قال الحافظ ابن حجر : «قوله : «ففيهما فجاهد» أى : إن كان لك أبوان ، فأبلغ جهدك في برهما ، والإحسان إليهما ، فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو^(٢) .

(١) فتح البارى (٤/١٣) .

(٢) المرجع السابق (٦/١٣) .

قال الإمام القرطبي المتوفى ٦٥٦ هـ في كتابه (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢٧٥)) ضوابط عظيمة ومفيدة لواقعنا المعاصر :

وقوله (ثم الجهاد في سبيل الله) ظاهر هذا الحديث^(١) : أن الجهاد أفضل من سائر الأعمال بعد الإيمان ، وظاهر حديث أبي ذر أن الجهاد مساوٍ للإيمان في الفضل ، وظاهر حديث ابن مسعود يخالفهما ؛ لأنه أخر الجهاد عن الصلاة ؛ وعن بر الوالدين ، وليس هذا بتناقض ؛ لأنه إنما اختلفت أجوبته لاختلاف أحوال السائلين ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يجيب كل سائلٍ بالأفضل في حقه ، وبالمؤكد في حقه ، فمن كان متأهلاً للجهاد ، وراغباً فيه ، كان الجهاد في حقه أفضل من الصلاة وغيرها ، وقد يكون هذا الصالح للجهاد له أبوان ويحتاجان إلى قيامه عليهما ، ولو تركهما لضاعا ؛ فيكون بر الوالدين في حقه أفضل من الجهاد ، كما قد استأذن رجل النبي ﷺ في الجهاد ، فقال : «أحى والداك؟» قال : نعم ، قال : «فيهما فجاهد» وهكذا سائر الأعمال .

وقد يكون الجهاد في بعض الأوقات أفضل من سائر الأعمال ، وذلك في وقت استيلاء العدو وغلبته على المسلمين ، كحال هذا الزمان^(٢) ، فلا يخفى على من له أدنى بصيرة ، أن الجهاد اليوم أوكد الوجبات ، وأفضل الأعمال ، لما أصاب المسلمين من قهر الأعداء ، وكثرة الاستيلاء شرقاً وغرباً ، جبر الله صدعنا ، وجدد نصرنا». انتهى كلام القرطبي - رحمه الله تعالى .

ويزيد الإمام الغزالي معنى عظيمة في محاكمة الأمور عند تعارضها مع بر الوالدين ، فيقول - رحمه الله تعالى : «أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات ، وإن لم تجب في الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما

(١) الحديث : سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل؟ قال : «الإيمان بالله ورسوله» قيل : ثم ماذا؟ قال : «الجهاد في سبيل الله» قيل : ثم ماذا؟ قال : «حج مبرور» . رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(٢) هذا في زمان الإمام القرطبي (٥٧٦ - ٦٥٦ هـ) ، فكيف يكون الكلام في زماننا !! . اللهم ارحم ضعفنا ، واجبر كسرنا ، وحول حالتنا لأحسن حال .

بالطعام ، فعليك أن تأكل معها؛ لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم ، وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح ، أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذى هو فرض الإسلام نفل ؛ لأنه على التأخير ، والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ، ولم يكن فى بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء فى بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام ، فعليه بالهجرة ، ولا يتقيد بحق الوالدين»^(١) .

وقال الإمام الكاسانى فى «بدائع الصنائع» (٧/ ٩٨) : «وكذا الولد لا يخرج إلا بإذن والديه ، أو أحدهما إذا كان الآخر ميتاً ؛ لأن بر الوالدين فرض عين ، فكان مقدماً على فرض الكفاية» ا.هـ .

٢- تقديم بر الوالدين على الزوجة والأصدقاء :

روى الترمذى عن على - كرم الله وجهه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء :

«... وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبرّ صديقه وجفا أباه ... الحديث» .

وقال : حديث غريب .

وفى رواية للترمذى عن أبى هريرة ؓ قال رسول الله ﷺ «وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ..» قال الترمذى : وفى الباب عن على ، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وروى أبو داود والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كانت تحتى امرأة ، وكنت أحبها ، وكان عمر يكرهها ، فقال لى : طلقها فأبيت ، فأتى عمر ؓ النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبى ﷺ : «طلقها»^(٢) .

(١) الإحياء (٢/ ٢١٨) .

(٢) قال الإمام أحمد لرجل سأله نفس السؤال : اتنى بأب مثل عمر لكى يأمر ابنه بالطلاق ، حتى يستجيب الابن له .

وروى الإمام أحمد والنسائي وصححه الحاكم عن عائشة - رضى الله عنها
سألت النبي ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة قال : «زوجها» ، قلت : فعلى
الرجل ؟ قال : «أمه» .

وحسبنا شاهداً يوقظ من الغفلة أن نختم بهذا الحديث :

وروى الإمام أحمد (مختصراً) والطبراني (واللفظ له) عن عبد الله بن أبى أوفى
رضى الله عنهما - قال : كنا عند النبي ﷺ فأثاءه آت فقال : شاب يجود بنفسه ، قيل له :
قل : لا إله إلا الله ، فلم يستطع ، فقال : «أكان يصلى» فقال : نعم ، فنهض رسول
الله ﷺ ، ونهضنا معه ، فدخل على الشاب ، فقال له : «قل لا إله إلا الله» فقال : لا
أستطيع ، قال : «لم؟» قيل : كان يعق والدته ، فقال ﷺ : «أحياة والدته؟» قالوا :
نعم ، فدعاها ، فقال لها : «أرأيت لو أججت نارا ضخمة ، فقبل لك : إن شفعت له
خلينا عنه ، وإلا أحرقناه بهذه النار ، أكنت تشفعين له؟» قالت : يا رسول الله ، إذا
أشفع ، قال : «فأشهدى الله ، وأشهدىنى أنك قد رضيت عنه قالت : اللهم إنى
أشهدك وأشهد رسولك أنى قد رضيت عن ابنى ، فقال له رسول الله ﷺ : «يا
غلام ، قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»
فقالها ، فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذى أنقذه من النار» .

٣- تقديم بر الوالدين على الحج :

فى الصحيحين عن أبى هريرة ؓ قال رسول الله ﷺ : «للعبد المملوك المصلح
أجران» والذى نفس أبى هريرة بيده ، لولا الجهاد فى سبيل الله ، والحج ، وبر أمى ،
لأحببت أن أموت وأنا مملوك .

هذا ، ولم يحج أبو هريرة حتى ماتت أمه ، مبالغة فى إكرام أمه ، وصحبته .
ورواه الترمذى - أيضاً .

٤- تقديم بر الوالدین علی زیارة الرسول ﷺ :

وهذا نموذجٌ في غاية الروعة والجمال ، اكتسب صاحبه شرف السبق في كل ميدان بفضل شغله ببرّ أمه ، حتى أنه ما كان يستطيع زیارة النبی ﷺ ومشاهدته ، ولو مرة واحدة ، لاحتیاج أمه إليه ، إنه أويس القرني - رحمه الله تعالى - رزقني الله وإياك مثل بره - أخرج مسلم ، عن أسيد بن جابر - رحمه الله - قال : كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفیکم أويس بن عامر؟ قال : نعم ، قال : من مرادٍ ثم من قرني؟ قال : نعم قال : فكان بك برص ، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال : نعم قال : لك والدّة؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يأتی علیکم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مرادٍ ثم من قرن ، وكان به برص ، فبرأ منه إلا موضع درهم له والدّة هو بها برّ لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» فاستغفرت لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد؟ قال : الكوفة ، قال : ألا أكتب إلى عاملها؟ قال : أكون في غبراء الناس أحبُّ إليّ .

قال : فلما كان من العام المقبل حجّ رجل من أشرافهم ، فوافق عمر ، فسأله عن أويس ، قال : تركته رثّ البيت ، قليل المتاع ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يأتی علیکم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مرادٍ ، ثم من قرن ، كان به برص ، فبرأ منه ، إلا موضع درهم له والدّة هو بها برّ ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» فأتى أويسًا ، فقال : استغفر لي ، قال : أنت أحدث عهداً بسفرٍ صالح ، فاستغفر لي ، قال : لقيت عمر؟ فقال : فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أسيد : وكسوته بُردة ، فكان كلما رآه إنسان ، قال : من أين لأويس هذه البردة؟!

٥- تقديم بر الوالدين على حب الأولاد :

معنا الآن حادثة غريبة في أمرها ، عظيمة في بابها ، رائعة في إخلاصها ، قمة في معانيها وفي بر صاحبها ، تبين كيف أن الإخلاص في بر الوالدين ينجي صاحبه في الظلمات الخالكة ... وفي الأزمان الصعبة ... عندما يبلغ آخر أنفاسه ، فيأتيه الفرج الرباني لقاء بر الوالدين ، جعلني الله وإياك من البررة :

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله - تعالى - بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم ، إنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغيب^(١) قبلهم أهلاً ولا مالاً ، فنأى^(٢) بى طلب الشجر يوماً ، فلم أرح^(٣) عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما ، وأن أغيب قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدرح على يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر - والصبية يتضاغون^(٤) عند قدمي ، فاسيقظا ، فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم ، إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي . وفي رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت مني ، حتى أملت بها سنة من السنين ، فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومائة ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها . وفي رواية : فلما قعدت بين رجلها

(١) أى : لا أقدم على الشرب .

(٢) أى : بعد .

(٣) أى : أرجع .

(٤) أى : يصيحون .

قالت : اتق الله ، ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها ، وهى أحبُّ الناس إلىّ ، وتركْتُ الذهب الذى أعطيتها ، اللهم ، إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، ففرّج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم ، إنى استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الذى له ، وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين ، فقال : يا عبد الله ، أدِّ إلىّ أجرى ، فقلتُ : كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله ، لا تستهزئ بى ، فقلتُ : لا أستهزئ بك ، فأخذته كله ، فاستاقه ، فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون .

٦- تقديم بر الأم على النوافل :

أخرج الشيخان (واللفظ لمسلم) عن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه «كان جريج رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة ، فكان فيها ، فأثته أمه ، وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ، فقال : اللهم أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فقالت بعد ثالث يوم من ثالث مرة : اللهم لا تمته حتى ينظر فى وجوه المومسات ، فذكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئت لأفتننه ، فتعرضت له ، فلم يلتفت لها ، فأثت راعياً كان يأوى إلى صومعة ، فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فلما ولدت ، قالت : هو من جريج ، فأثوه ، فأنزلوه من صومعته ، وهدموها ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم؟ قالوا : زينت بهذه البغى فولدت منك ! فلما انصرف أتى الصبى ، فطعن فى بطنه ، وقال : يا غلام ! من أبوك؟ فقال فلان الراعى .

فأقبلوا على جريج يُقبّلونه ، ويتمسّحون به ، وقالوا : نبى صومعتك من ذهب ، قال : لا ، أعيدوها من لبن كما كانت ، ففعلوا ، وبينما كان الصبى يرضع من

أمه، مرَّ رجلٌ على دابة فارهة ، وشارة حسنة ، فقالت المرأة : اللهم اجعل ابني مثل هذا ، فترك الثدى ، وأقبل ينظر إليه ، وقال : اللهم ! لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديه ، وجعل يرضع ، قال : فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه يمصها .

ومروا بجارية يضربونها ، ويقولون : زنيته ، سرقت ، وهى تقول : حسبي الله تعالى ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم ، لا تجعل ابني مثلها ، فترك الرضاع ، ونظر إليها ، فقال : اللهم اجعلني مثلها .

فهناك تراجعاً الحديث ، فقال : مر رجل حسن الهيئة ، فقلت : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، ومروا بهذه الأمة يضربونها ، ويقولون : زنيته ، سرقت ، فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها ، فقال : إن ذلك الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنيته ، سرقت ، ولم تزن ، ولم تسرق ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها .

قال الحافظ ابن حجر : «قال ابن بطلال : سبب دعاء أم جريج على ولدها : أن الكلام في الصلاة كان في شرعهم مباحاً ، فلما أثر استمراره في صلاته ، ومناجاته على إجابته دعت عليه لتأخيره حقها . قال ابن حجر : والذي يظهر من ترديده في قوله : «أُمى وصلاتي» أن الكلام عنده يقطع الصلاة ، فلذلك لم يجيبها .

وقد روى الحسن بن سفيان من طريق الليث عن يزيد بن حوشب ، عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لو كان جريج عالماً لعلم أن إجابته أمه أولى من عبادة ربه»^(١) .

٧- تقديم بر الوالدين على الهجرة في سبيل الله :

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني

(١) فتح البارى (٣/ ٣٢١) .

جئت أبايك على الهجرة ، وتركت أبوأي يكيان ، قال : « فارجع إليهما فأضحكما
كما أبكيتهما ». رواه الحاكم في مستدركه (١٥٢ / ٤) وقال : صحيح الإسناد ، ولم
يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٨ - الثناء على الوالدين وإظهار فضلها ، وتقوية معنوياتها لمواجهة

الشدائد :

إن الحديث مع الوالدين يقوى من الصلة بهما ، كما أنه متعة روحية نفسية ، لمن
يتذوق حق الوالدين وفضلها ، وعظيم مكانتها .

وفي حياة الوالدين تقع لها مشاكل اجتماعية أو مالية أو صحية أو سياسية أو
عند سكرات الموت ، فإذا أثنى عليها الابن ، وذكرها بفضلها ، وحسن مكانتها ،
وبالطاعات التي كانا يفعلانها ، فإن ذلك يساعد على شد أزرها و لمواجهة الحدث
الجديد .

فعن ابن شماسه قال : حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياقة الموت -
فبكى طويلاً ، وحولَّ وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه ، أما بشرك
رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟

فأقبل بوجهه ؛ فقال : إن أفضل ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، إنى قد كنتُ على ثلاثة أطباق :

- لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحبَّ إليَّ من أن
أكون قد استمكنتُ منه فقتلته ، فلو متُّ على تلك الحال ، لكنتُ من أهل النار .

- فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ : أبسط يمينك ،
فلأبأيك ، فبسط يمينه ، فقبضتُ يدي ، فقال : «مالك يا عمرو؟!» قلتُ : أردتُ
أن أشتري . قال : «تشرطُ ماذا؟» . قلتُ : أن يُغفر لي ، قال : «أما علمتَ أن

الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟» .

وما كان أحدٌ أحبَّ إلىَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلُّ في عيني منه ، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطقُ ؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه ، ولو متُّ على تلك الحال ، لرجوتُ أن أكونَ من أهل الجنة .

ثم وُلِّينا أشياء ما أدري ما حالى فيها؟ فإذا أنا متُّ فلا تصحبي نائحةً ، ولا نارٌ، فإذا دفنوني ، فثنُّوا على الترابِ سنًّا ، ثم أقيموا حولَ قبري ؛ قدرَ ما تُنحرُ جُزورٌ، ويُقسمُ لحمُها حتى أستاذسَ بكم ، وأنظرَ ما أراجعُ به رُسلَ ربِّي !» . رواه مسلم .

٩ - خاتمة - نموذج بر الرسول ﷺ لوالديه من الرضاعة ، وبر ابنته فاطمة له :

روى أبو داود عن عمر بن السائب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً ، فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه ، فقعده عليه ، ثم أقبلت أمه من الرضاعة ، فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر ، فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام النبي ﷺ : «فأجلسه بين يديه» .

وروى أبو داود - أيضاً - عن أبي الطفيل رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ يَقْسِمُ لحماً بالجعرانة ، وأنا يومئذ غلامٌ ، أهل عظم الجزور ، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي ﷺ فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هي ؟ فقالوا: هذه أمه التي أرضعته .

وروى الشيخان ومالك عن أمِّ هانئ - رضي الله عنها - أخت علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - قال : ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح ، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تسترهُ بثوب ، فسلمتُ عليه فقال : «من هذه؟» فقلت أنا أم هانئ بنت أبي طالب ، فقال : «مرحباً بأم هانئ... الحديث» .

وروى الشيخان عن أبي حازم قال : إنه سمع سهل بن سعد يسأل عن جرح رسول الله ﷺ يوم أحد، فقال جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وهُشِمت البيضة^(١) على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان عليٌّ يسكب عليها بالمجن^(٢)، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصيرة، فأحرقته، حتى صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم.

الأساس الثالث : لا طاعة للوالدين في معصية الخالق مع بقاء الإحسان إليهما :

إن الذى فرض طاعة الوالدين هو الله - تعالى، فإذا أراد بعض الأبوين استغلال هذا الفرض في غير ما أمر الله سبحانه، فإن الله تعالى أذن للمسلم، وطالبه بعدم الطاعة، وفي ذلك إحسان لهما، وتنبيه للرجوع إلى أمر الله تعالى، فإن أصراً على المعصية، أو الكفر، فيبقى الابن محسناً لهما في غير المعصية... وهذا خلق إسلامي رفيع في الإحسان إليهما، ومصاحبتهما بمعروف رغم انحرافهما عن الشريعة، ولكن دون أن يمسا العقيدة بأى طعن، أو لمز، أو غمز، وكل ما يؤول إلى الكفر لا طاعة للوالدين فيه، وكل أمر فيه معصية (كالحرام، والمكروه تحريماً) لا طاعة للوالدين فيه. مع إبلاغهما شرع الله تعالى برفق، ولين وحكمه، وليس بفظاظة وغلظة، وغضب واستكبار.

وكلنا نعلم قول النبي ﷺ : « لا طاعة لبشر في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف »^(٣).

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « على المرء المسلم الطاعة، فيما أحبَّ وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أُمرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة ». رواه الشيخان.

(١) البيضة : الخوذة، والهشم : الكسر.

(٢) المجن : الترس.

(٣) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائي والطيالسى. انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٨١) ورواه أبو يعلى في مسنده (١/ ٢٤١).

فقد أوجب النبي ﷺ الطاعة لمن تجب طاعته كالوالدين ؛ والحاكم المسلم ، سواء أحب المسلم ذلك الأمر أو كرهه ، فالحب والكره شيء ، وضرورة الالتزام بالطاعة شيء آخر ، أما المعصية فلا سمع فيها ولا طاعة كائناً من كان أمرها ؛ لأن المعصية فيها مخالفة أمر الله تعالى الذي هو صاحب الأمر والنهي على الجميع ؛ ولأن «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» . رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح قاله الهيثمي في المجمع (٢٢٦/٥) .

يقول الفخر الرازي في التفسير : «الإنسان إن انقاد لأحد ينبغي أن ينقاد لأبويه، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلاً عن غيرهما» ^(١) .

وفي جيل الصحابة شواهد كثيرة على ذلك :

أخرج مسلم والترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : «أنزلت في أربع آيات من القرآن ، قال : حلفت أم سعد ألا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك ، فأنا أمك ، وأنا أمرك بهذا ، قال : مكثت ثلاثاً حتى غشى عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها ، فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَبِهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت] ، ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَبِهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان] ^(٢) .

(١) انظر : تفسير الرازي (٣٥/٢٥) .

(٢) قال القرطبي في تفسير الآية (٦٤/١٤) : «إن طاعة الأبوين لا تُراعى في ارتكاب كبيرة ، ولا في ترك فريضة ، وتلزم طاعتها في المباحات» . وقال الرازي (١٤٧/٢٥) : «يعنى أن خدمتهما واجبة وطاعتها لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما» .

وروى ابن جرير بسنده^(١) عن ابن زياد قال : دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول ، قال : «ألا ترى ما يقول أبوك؟» قال : وما يقول أبي؟ فذاك أبي وأمي ، قال : «يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فقال: فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل وأما والله ، لقد قدمت المدينة يا رسول الله ، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحدٌ أبرّ بوالده مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به ، فقال رسول الله ﷺ : «لا»، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه قال أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يؤويك ظلها ، ولا يؤويه - أبداً إلا بإذن من الله ورسوله ، فقال : يا للخزرج .. ابني يمنعني بيتي .. يا للخرزرج ! ابني يمنعني بيتي !

فقال : والله ، لا يأويه - أبداً إلا بإذن منه ، فاجتمع إليه رجال فكلّموه ، فقال : والله ، لا يؤويه إلا بإذن من الله ورسوله ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه ، فقال : «اذهبوا إليه فقولوا له : خلّه ومسكنه» ، فأتوه ، فقال : أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم .

وقال الحميدى فى مسنده^(٢) : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة - أبداً - حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل .

ويبقى الإحسان إليهما فى أمور الدنيا مستمرا ، وصلة رحمهما دائمة . وفى الصحيحين ، عن أسماء بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد ، أى : معاهدته ﷺ (مع المشركين ، وتأمينه لهم فى صلح الحديبية) فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : قدمت على أمى وهى راغبة (أى : طامعة فيما عندى تسألنى شيئا) أفأصل أمى (أى : أتصدق عليها مع كفرها) ؟ قال : نعم ، صلى أمك .

(١) ورواه محمد بن إسحاق بن يسار كما فى (مختصر ابن كثير) للصابونى .

(٢) مختصر ابن كثير للشيخ : محمد على الصابونى (٥٠٦/٣) .

قال ابن عيينة : فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخَرِّجُوهُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة] .

ويبقى الابن المسلم حريصاً كل الحرص على إسلام والديه ، ودعوتهم إلى الإيمان ، وحثهم على التطبيق ، بكل لهفة ، ورحمة ، ولطف ، وهدوء ، وهذا مسلك الأنبياء والمرسلين في دعوة آبائهم ، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام يقدم لنا نموذجاً في طريقة الدعوة :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ [١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا [٢] يَتَابِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا [٣] يَتَابِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا [٤] يَتَابِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ مِلًّا [٥] قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا [٦] قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا [٧] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا [٨] فَلَمَّا آعَزَ هُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا [٩] وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [١٠] ﴾ [مريم] .

وهذا أبو هريرة يقدم نموذجاً رائعاً في الحرص على دعوة أمه : روى البخاري في «الأدب المفرد» عن أبي كثير التميمي قال : سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يقول : ما سمع بي أحد يهودي ، ولا نصراني إلا أحبنى ، وإن أمي كنت أريدها على الإسلام فتأبى ، فقلت لها فأبت ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : ادع الله لها ، فدعا ، فأتيتها ، وقد أغلقت عليها الباب ، فقالت : يا أبا هريرة ، إنني قد أسلمتُ ، فأخبرت النبي ﷺ فقلت : ادع الله لي ولأمي ، فقال : «عبدك أبو هريرة وأمه أحبهما إلى الناس» .

وهذا أبو بكر يسارعُ بعد فتح مكة ليأخذ والده إلى النبي ﷺ طمعاً في إسلامه ،
وقد كان :

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضى الله عنهما - قالت : لما كان عام الفتح ،
ونزل رسول الله ﷺ ذا طوى ، قال أبو قحافة لابنة له وكانت أصغر ولده : أى بنية ،
أشرفى بى على أبى قبيس وقد كفَّ بصره ، فأشرفت به عليه ، فقال : أى بنية ماذا
ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعا ، وأرى رجلاً يسرى بين يدى ذلك السواد ،
فقال : تلك الخيل يا بنية ، ثم قال ماذا ترين قالت : أرى السواد قد انتشر ، فقال : إذا
والله دفعت الخيل ، فأسرع بى إلى بيتى فخرجتُ سريعا حتى إذا هبطت به إلى
الأبطح ، وكان فى عنقها طوقٌ لها من ورق ، فاقتطعه إنسان من عنقها ، فلما دخل
رسول الله ﷺ المسجد خرج أبو بكر ﷺ حتى جاء مع أبيه يقوده ، فلما رآه رسول
الله ﷺ . قال : «هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أجيئه !؟» فقال : يمشى هو إليك يا
رسول الله ، أحق من أن تمشى إليه ، فأجلسه بين يديه ، ثم مسح رسول الله ﷺ
صدره ، وقال : «أسلم تسلم» فأسلم . رواه الحاكم فى مستدركه (٤٦/٣) وقال :
صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبى .

ولكن كيف يتعامل الابن مع أحد والديه الفاسقين ؟ وكيف يعظمهما ؟ ! لقد
درس السيد جلال الدين العُمري فى المسألة فى كتابه القيم (الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر)^(١) فقال فى عنوان : الحسبة على الوالدين :

«إن قيام الولد بفريضة الأمر بالمعروف ؛ والنهى عن المنكر ؛ تجاه والديه عمل
دقيق ، ومعقد جدًّا ، فهو يقتضى كثيرًا من الحيلة والتحفظ ، فعلى الولد إذا كان
أبواه يهملان المعروف ؛ ويرتكبان المنكر عن جهل أن يعظهما ويلقنهما حكم
الشرعية ، ولا يجوز له البتة ما وراء ذلك من الزجر والترقيع ، أو الضرب قال الله
عز وجل فى القرآن الكريم : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا

(١) ترجمه من الأوردية إلى العربية محمد أجمل أيوب الإصلاحي ، نشر شركة الشعاع ، الكويت .

وقد بلغ من حق الأبوين على ولدهما أنه لا يُقتَص منهما إذا قتلاه : «لا يُقَاد الوالد لولد» رواه الترمذى فى أبواب الديات .

وكذلك لا يجوز للولد أن يَقْتَصَّ من الوالد ، مثل أن تقتل أم ابنها فيسقط حق القصاص من الابن^(١) .

وإن تقابل الولد وأبواه الكافران فى الحرب ، فعلى الولد أن يتجنب قتلها ما أمكنه إلا أن يضطر إلى ذلك دفاعاً عن نفسه ، بأن يخاف أن يقتلاه إن ترك قتلها^(٢) .

وقالت الفقهاء : إن الولد ليس له أن يباشر إقامة الحد على أبويه ، ويقول الغزالي ، بعد إirاده مثل هذه التفاصيل :

«إذا لم يجز له إيذاؤه بعقوبة هى حق على جناية سابقة ، فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هى منع من جناية مستقبلية متوقعة بل أولى»^(٣) .

ونقل العلامة ابن عابدين عن «فصول العلامى» : «أن الرجل ينهى أبويه إذا رآهما يرتكبان المنكر مرة واحدة ، فإن انتهايا ؛ وإلا فيسكت إن ساءهما ذلك ، ويسأل الله عز وجل أن يهديهما ؛ ويغفر ذنبهما»^(٤) .

وقال بعضهم : «إنه ينبغى للولد أن يُزيل المنكر الذى يرتكبه أبواه دون أن ينال منهما ؛ نحو : أن يُريقَ الخمر ؛ التى يشربانها ؛ ولا يؤذيهما» . انتهى .

إن المسلمين اليوم بحاجة شديدة إلى فقه التعامل مع الوالدين ، وخاصة الدعاة منهم . وإن الحقوق المنتشر فى الأسر المسلمة المتدينة وغير المتدينة سبب فى إعاقة العمل الإسلامى ، فالنصر والنجاح والتوفيق لا يتنزل على قوم عاقين لوالديهم .

(١) الهداية مع شرح العناية على هامش فتح القدير (٨/ ٢٦٠) .

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٣٩) والبحر الرائق (٥/ ٧٨) .

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٨٠) .

(٤) رد المحتار على الدر المختار (٣/ ٢٦١) .

الأساس الرابع : أحق الناس بصحبتك والداك :

كثيرًا ما يخطئ الإنسان في اتخاذ الصاحب والخليل ، فلا يستطيع أن يجد المخلص الوفي ، ويركض في طلبه ، فتتعر قدماه ، ويبحث هنا وهناك بجِدٍّ ونشاط ، لعله يجد المخلص الوفي ، فيلمح من بعيد صديقًا ، فيصادقه حتى إذا صادقه وجده غير ذلك .

ولم يترك النبي ﷺ الإنسان وهذه حالته في القلب ، فدلّه إلى طريق مختصر قصير جدًّا في الوصول إلى الصديق الوفي ... إنه الوالدان ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : «أمك» قال : ثم من ؟ قال : «أمك» قال : ثم من ؟ قال : «أمك» قال : ثم من ؟ قال : «أمك» . وفي رواية : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحبتي ؟ قال : «أمك ، ثم أمك ثم أمك ، ثم أباك^(١) ، ثم أدناك أدناك» .

وقد يقول قائل : أنا في غنى أن أتخذ صاحباً وصديقاً ؟ فالجواب : إذا أنت استغنيت فلا بأس ، ولكن الوالدين لا يستغنيان عن صحبتك ، ومحدثك ، ومشاورتك ، وسماع رأيك في كثير من القضايا التي تستجد في حياتهما وحياة إخوتك ، ويبقى حديث رسول الله ﷺ هو الحكم الفصل .

الأساس الخامس : تقديم بر الأم على الأب عند التعارض بعد محاولة التوفيق بينهما :

قال الحافظ ابن حجر شارحاً للحديث السابق ما يلي :

«قال ابن بطال : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، قال : وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم ، وتشقى بها ، ثم تشارك الأب في التربية» .

(١) قال النووي - رحمه الله : هكذا منصوب بفعل محذوف ، أي ثم برّ أباك .

وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۝ ﴾ [لقمان] فسوى بينهما في الوصايا ، وخص الأم بالأمور الثلاثة .

وقال القرطبي : المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر ، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاومة .

وقال عياض : وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل في البر على الأب ، وقيل : يكون برهما سواء ، ونقله بعضهم عن مالك ، والصواب الأول .

قلت - أي : ابن حجر : إلى الثاني ذهب بعض الشافعية ، لكن نقل عن الحارث المحاسبى الإجماع على تفضيل الأم في البر ، وفيه نظر .

والمنقول عن مالك ليس صريحاً في ذلك ، فقد ذكره ابن بطال ، قال : سُئِلَ مالك : طلبني أبي ، فمنعتني أمي ؟ قال : أطع أباك ، ولا تعص أمك ، قال ابنُ بطال : هذا يدلُّ على أنه يرى أن برهما سواء ، كذا قال ، وليست الدلالة على ذلك بواضحة .

قال : وسُئِلَ الليث يعنى عن المسألة بعينها ، فقال : أطع أمك ، فإن لها ثلثي البر ، وهذا يشير إلى الطريق التي لم يتكرر ذكر الأم فيه إلا مرتين .

وقد أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأحمد وابن ماجه ، وصححه الحاكم بلفظه : «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالآقرب فالأقرب» .

«وفي حديث أبي رمثة : انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعتة يقول : «أمك ، وأباك ، ثم أختك ، وأخاك ، ثم أدناك أدناك»^(١) . أخرج الحاكم هكذا ، وأصله عند أصحاب السنن الثلاثة وأحمد ، وابن حبان . والمراد بالدنو : القرب إلى البار ، قال

(١) حسن . انظر صحيح الجامع رقم (١٤٠٠) وقال : أخرج أبو يعلى في سننه عن صعصعة المجاشعي ، والطبراني عن أسامة بن شريك .

عياض : تردّد بعض العلماء في الجد والأخ ، والأكثر على تقديم الجد .

«قلت : - أى : ابن حجر : وبه جزم الشافعية ، قالوا : يقدّم الجد ثم الأخ ، ثم يقدّم من أدلى بأبوين على من أدلى بواحد ، ثم تقدم القرابة من ذوى الرحم ، ويقدم منهم المحارم على من ليس بمحرم ، ثم سائر العصبات ، ثم المصاهرة ، ثم الولاء ، ثم الجار ، وأشار ابنُ بطلال : إلى أن الترتيب حيث لا يمكن إيصال البر دفعة واحدة ، وهو واضح» .

وجاء ما يدل على تقديم الأم في البر مطلقاً ، وهو ما أخرجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم من حديث عائشة : سألت النبي ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : «زوجها» ، قلت : فعلى الرجل ؟ قال : «أمه» .

ويؤيد تقديم الأم حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إن ابني هذا كان بطنى له وعاء ، وثديى له سقاء ، وحجرى له حواء ، وإن أباه طلقنى ، وأراد أن ينزعه منى ، فقال : «أنت أحق به ما لم تنكحى» وكذا أخرجه الحاكم ، وأبو داود . فتوصلت لاختصاصها به وبإخصاصه بها في الأمور الثلاثة .

«ونقل المحاسبى الإجماع على أن الأم مقدمة في البر على الأب»^(١) .

الأساس السادس : أنت ومالك لأبيك^(٢) :

روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، إن لى مالا وولداً ، وإن أبى يحتاج مالى ، فقال : «أنت ومالك لأبيك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم»^(٣) .

(١) فتح البارى (١٣/٦٠٥) .

(٢) انظر بتوسع : مصنف عبد الرزاق (٩/١٢٩) .

(٣) صحيح . انظر : صحيح الجامع رقم (١٤٨٧) .

وفي رواية أبي حنيفة كما في مسنده عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن أولادكم من كسبكم ، وهبة الله لكم ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور» .

وروى البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه : «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم» .

وقد روى القرطبى حادثة الشيخ مع ابنه ، فقال :

روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله ؓ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبى أخذ مالى ، فقال النبى ﷺ للرجل : «فأتنى بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام ، على النبى ﷺ وقال : إن الله - عز وجل - يقرئك السلام ويقول لك : إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه» فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ : «ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ؟» فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقه إلا على إحدى عماته ، أو خالاته ، أو على نفسى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : «إيه .. دعنا من هذا ، أخبرنى عن شىء قلتَه فى نفسك ما سمعته أذنك» .

فقال الشيخ : والله يا رسول الله ، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقيناً ، لقد قلت فى نفسى شيئاً ما سمعته أذنائى ، قال : «قل وأنا أسمعك» قال : قلت ^(١) :

غَدَوْتُكَ مَوْلُودًا وَمُتُّكَ ^(٢) يَافِعًا
تَحَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّمَا
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي
جَعَلْتَ جَزَائِي غُلْطَةً وَفُظَازَةً
كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذَا لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبَوَاتِي
فَأَوْلَيْتَنِي حَقَّ الْجَوَارِ وَلَمْ تَكُنْ
عَلَى بَمَالٍ دُونَ مَالِكَ تَبَخَلُ

(١) نسبت هذه الأبيات فى أشعار الحماسة لأمية بن أبى الصلت .

(٢) أى : قمت بمؤنتك .

قال : فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه ، وقال : «أنت ومالك لأبيك»^(١).

وقد تقدم معنا الحديث الذى رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح قول النبي ﷺ عن رجل : «وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله».

عن محمد بن سليم قال : حدثنا (مَطَرُ الوراق) أن رسول الله ﷺ قال : «هل تعلمون أى نفقة أفضل من نفقة فى سبيل الله ؟ ! قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «نفقة الولد على الوالدين» . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (١/ ١٦١) قال محقق الكتاب : حديث مرسل ، إسناده مقبول .

وهكذا كانت أفضل الصدقات إنفاق الوالدين على أولادهما ، وإنفاق الولد على والديه ، فأصبح التكريم الإلهى لكلا الطرفين ، وذلك لأنه «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ» وكما تزرع تحصد .

وكذلك فإن للوالدين الحق فى الرجوع بالهبة المقدمة لأحد أبنائهم :

روى الترمذى، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يحل لأحد أن يعطى عطية فيرجع فيها إلا الوالد لولده» . ورواه ابن ماجه والبيهقى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأحمد .

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى وأبو داود، عن ابن عمرو وابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال : «ولا يحلُّ لرجل أن يعطى عطية ، أو يهب هبة ، ثم يرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده ، ومثل الذى يعطى العطية ، ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل ، فإذا شبع قاء ، ثم يعود فى قيئه» .

وعن محمد بن سيرين قال : «بلغت النخلة على عهد عثمان بن عفان ؓ ألف درهم ، فعمد أسامة بن زيد إلى نخلة ، فنقرها ، وأخرج جمارها ، فأطعمها أمه ،

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٤٥) (ط٣) . رواه ابن ماجه عن جابر ، ورواه الطبرانى عن سمرة وابن مسعود ، والحديث صحيح . انظر : صحيح الجامع ، رقم (١٤٨٦) .

فقال له : ما حملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألفاً ؟ ! فقال : إن أُمى سألتني ، ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها» . رواه الحاكم في مستدركه (٥٩٧/٣) وسكت عنه ، وقال الذهبي : أمه ماتت زمن الصديق ، والحديث فيه إرسال .

الأساس السابع : عتق الوالدين من أى مال استحقَّ بذمتهما :

وهذه صورةٌ من صور البر العظيمة ، ففي السابق أيام الرقيق ، قد يصبُح الابن حرّاً وله مال ، والأب أو الأم رقيقين بلا مال يعتقان أنفسهما ، أما صورتها في واقعنا الحالى ، فمثلاً حَلَّت بأحد الوالدين ديون كثيرة لأى سبب من الأسباب ، فماذا كان موقف رسول الله ﷺ في هذه الحالة ؟ .

«لا يجزى ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه ، فيعتقه» . رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

وصورتها كذلك : أن يسجن أحد الوالدين لأى سبب من الأسباب ، ولا يملكان مالاً لكفالتهم ، فما على الولد إلا المسارعة لوضع ماله في خدمة والديه ؛ لأنه كما تقدم : «أنت ومالك لأبيك» .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «من حج عن أبويه ، أو قضى عنهما مغرمًا ، بُعث يوم القيامة مع الأبرار» . رواه الدارقطنى (٢٦٠/٢) .

الأساس الثامن : الدعاء المتبادل بين الأبوين وأبنائهما :

الدعاء ركن أساسى فى البر ، وهو مظهرُ القلب الذى يعبر عن الحب والود ، وهو دليل البر القلبى ، فالقلب المقعم بالحب يلحّ بالدعاء ، ويجرى على اللسان مجرى النفس ، وكلما ازدادت المحبة القلبية المتبادلة بين الوالدين والأبناء ، ازداد الدعاء .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده». رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن ، وليس في رواية أبي داود : «على ولده»^(١) .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ على أم سليم ، فأتته بتمرٍ وسمنٍ قال : «أعيدوا سمنكم من سقائه ، وتمركم في وعائه فإني صائم» ثم قام إلى ناحية من البيت ، فصلّى غير المكتوبة ، فدعا لأم سليم وأهل بيتها ، فقالت أم سليم : يا رسول الله ، إنَّ لي خويصة ، قال : «ما هي ؟» قالت : خادمك أنس ، فما ترك خير آخره ولا دنيا إلا دعا لي به : «اللهم ارزقه مالا ، وولداً ، وبارك له» فإني من أكثر الأنصار مالا ، وحدثني ابنتي أمينة أنه دُفن لصلبي مقدم حجّاج البصرة ؛ بضع وعشرون ومائة .

وروى البخاري في «الأدب المفرد» عن أبي حازم أن أبا مرة أخبره : أنه ركب مع أبي هريرة رضي الله عنه إلى أرضه بالعقيق ، فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته : عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمه ! فتقول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فيقول : رحمك الله كما ربّيتني صغيراً ، فتقول : يا بنى ، وأنت فجزاك الله خيراً ، ورضى عنك كما بررتني كبيراً . اللهم بارك لنا في أموالنا وأولادنا .

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة : «اثنين بزواجك وابتنيك» فجاءت بهم ، فألقى عليهم كساءً فديكياً ، قال : ثم وضع يده عليهم ، ثم قال :

«اللهم إن هؤلاء آل محمد ، فاجعل صلواتك وبركاتك على محمد وآل محمد ، إنك حميد مجيد» . قالت أم سلمة : فرفعت الكساء لأدخل معهم ، فجذبه من يدي ، وقال : «إنك على خير» رواه أحمد (٣٢٣/٦) .

(١) ورواه الإمام أحمد والبخاري في (الأدب) عن أبي هريرة ، ورواه ابن ماجه والطيالسي والطبراني وابن عساكر وأحمد والخطيب عن عقبة بن عامر . انظر : صحيح الجامع ، رقم (٢٠٣١) .

وهذا لا يعنى أن أم سلمة زوجة النبي ﷺ ليست من أهل البيت^(١) - كما يدعى البعض - وإنما أراد رسول الله ﷺ أن يخص ابنته فاطمة وزوجها عليًا وابنيهما الحسن والحسين بفضل معين ، وهذا من عادة رسول الله ﷺ أن يخص أصحابه وأقرباءه بخاصية معينة لما يراه من تمتعه بها ، أو أن يهديه منه ﷺ تكرمًا وتفضلاً ؛ بدليل أن النبي ﷺ قال لسعيد بن تميم : أين بنوك ؟ ! قلت : ها هم أولاء ، قال : فأتيتي بهم ، قال : فأتيتُ أهلي ؛ فألبستهم قمصًا بيضاء ، ثم أتيتهم بهم ، فقال : «اللهم إني أعيذهم بك من الكفر ؛ والضلالة ؛ والفقر الذى يصيب بنى آدم» . رواه الطبرانى وإسناده حسن ، قاله الهيثمى فى المجمع (٤١٤ / ٩) .

الأساس التاسع : ألا تستسب لوالديك :

من دلالات البر : أن تحافظ على اسم والديك من السب والشتم بشتى صورته ، وأشكاله ، سواء من أنفسهما ، فتفعل أعمالاً تغضبهما فيسبان ذاتهما ، فتكون أنت سبب هذا الشتم ، أو أن تسيء إلى أحد فيسب أحد والديك ، أو يسيء أحد إليك ، فتسبه بوالديه فيسب والديك ... وهكذا .

وباختصار إن سب الوالدين بأى صورة من الصور ، أو أى شكل من أشكاله ، ومهما كان سبب ذلك فليس من البر ، والمحافظة على اسم الوالدين من السب أكبر دليل على البر .

روى ابن السنى عن أبى هريرة ؓ أن النبي ﷺ رأى رجلاً معه غلام ، فقال للغلام : «من هذا ؟» قال : أبى : «فلا تمش أمامه ، ولا تستسب له ، ولا تجلس قبله ، ولا تدعه باسمه»^(٢) .

(١) وكون زوجات النبي ﷺ من أهل بيته قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضِحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلَىٰ شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۚ ﴾ [هود] .
(٢) رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١٣٨ / ١١) موقوفاً على أبى هريرة ، وقال حبيب الرحمن الأعظمى معلقاً : «والحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ، وروى عبد الرزاق (١٣٧ / ١١) قول طاوس : «إن من الجفاء أن يدعو الرجل والده باسمه» .

وروى ابن أبي الدنيا مرسلًا عن أبي المخارق رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «مررت ليلة أسرى بى برجل مغيب فى نور العرش ، قلت : من هذا ؟ أهذا ملك ؟ قيل : لا ، قلت : من هو ؟ قال : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب من ذكر الله ، وقلبه معلق بالمساجد ، ولم يستسب لوالديه» .

وثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «لعن الله من لعن والديه» ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : «نعم يسبُّ أبَا الرجل فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه» .

الأساس العاشر : أشهر الانتساب لأبيك واعتز به :

حرص الإسلام على إشهار نسب الابن من أول يوم يولد فيه ، فأوصى بالعقيقة؛ لإشهار نسب المولود ، وكثيرًا ما يحدث فى المجتمعات العجب العجائب ، ففى المجتمع الجاهلى القديم كان يتنصل الابن من نسبه لأبيه ، وفى المجتمع الجاهلى الحديث ينجل الابن المثقف - وقد حصل على منصب اجتماعى مرموق ينجل هذا الأحمق أن يعترف بأبيه وقد أتى لزيارته عابرًا أو غير ذلك من ألوان التهرب من إشهار اتصال الابن بأبيه التى يجيدها أبالسة هذا الزمان ، والعياذ بالله .

والأمر خطير عندما نعلم أن إنكار النسب يعنى الكفر بعينه ، وهذا هو الدليل :

فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «من ادعى إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام»^(١) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا ترغبوا عن آبائكم ، فمن رغب عن أبيه فهو كفر»^(٢) .

(١) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٥٩/٢) بسند صحيح ، ورواه أحمد (٩٦٩/١) والبيهقى (٤٠٣/٧) .
(٢) بأن يصير الولد فى رتبة جليلة من غنى ، أو جاه ، أو نحو ذلك ، وأبواه من الأذنياء ، فيرغب عن الانتساب إليهما .

وفي الصحيحين - أيضاً - واللفظ لمسلم - عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه».

الأساس الحادى عشر: الحج عمن عجز منها صحيحاً عن أدائه:

عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن امرأة من خثعم سألت رسول الله ﷺ غداة النحر، والفضل ردفه، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبى شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يستمسك على الرحلة، هل ترى أن أحج عنه؟ قال: «نعم». رواه ابن خزيمة في صحيحه بسند صحيح (٣٤٢/٤).

وعن ابن رزين: أنه قال: يا رسول الله، إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج والعمرة، ولا الظعن، قال: «حجّ عن أبيك» رواه ابن خزيمة في صحيحه (٣٤٦/٤) وإسناده صحيح.

الأساس الثانى عشر: إنفاذ نذرهما:

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ أدرك شيخاً كبيراً يهذى بين ابنيه، يتوكأ عليهما، فقال النبى ﷺ: «ما شأن هذا الشيخ؟» فقال ابناه: يا رسول الله، كان عليه نذر، فقال النبى ﷺ: «اركب أيها الشيخ، فإن الله غنى عنك وعن نذرك». رواه ابن خزيمة في صحيحه (٣٤٧/٤) ورواه مسلم.

الأساس الثالث عشر: العقوق^(١) من الكبائر، وجزاؤه في الدنيا والآخرة:

في الصحيحين عن أبى بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر

(١) أصل العَق: الشَّق. وإليه يرجع عقوق الوالدين، وهو قَطْعُهما؛ لأن الشَّق والقَطْع واحد يقال: عَقَّ ثوبه؛ إذا شَقَّه، عَقَّ والديه يَعْقُهما عَقّاً وَعُقُوقاً. قال الشاعر:

إن البنين شرارهم أمثاله من عَق والده وبر الأبعدا

انظر: كتاب «العين» للخليل.

الكبائر؟» قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال : «ألا وقول الزور» ، فما زال يُكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وروى النسائي عن ابن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر إليهما يوم القيامة: العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى» .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه والبخارى فى «الأدب المفرد» عن معاذ ﷺ قال : أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال :

١ - «لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرقت» .

٢ - «ولا تعقنّ والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلِكَ ومالك» .

٣ - «ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فقد برئت منه ذمة الله» .

٤ - «ولا تشربن خمرأ فإنه رأس كل فاحشة» .

٥ - «وإياك والمعصية فإن بالمعصية حلّ سخط الله» .

٦ - «وإياك والفرار من الزحف ، وإن هلك الناس» .

٧ - «وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت» .

٨ - «وأنفق على عيالك من طَوْلِكَ» .

٩ - «ولا ترفع عنهم عصاك أدباً» .

١٠ - «وأخفهم فى الله» .

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : «الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس» .

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن الله - تعالى - حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنعاً وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» .

وروى الإمام أحمد عن مالك بن عمرو القشيري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار ، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ، ثم لم يغفر له ، فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله ، وجبت به الجنة» .

وروى الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون ، فقال : «يا معشر المسلمين ، اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريح الجنة توجد في مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زانٍ ولا جارٌّ إزاره خيلاء ، إنها الكبرياء لله رب العالمين» .

ومن علامات الساعة : صورة قبيحة من العقوق ، بحيث يقتل الابن أباه ، فقد روى البخاري في «الأدب المفرد» (٢٠٣/١) عن أبي موسى مرفوعاً : «لا تقوم الساعة حتى يقتل الرجل جاره ، وأخاه ، وأباه» .

أما عقوبة العقوق في الدنيا :

فقد روى الحاكم والأصبهاني عن أبي بكرة : أن رسول الله ﷺ قال : «كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يجعله لصاحبه في الحياة الدنيا قبل الممات» .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يُعجلَ الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغى ؛ وقطيعة الرحم » . رواه البيهقي في كتابه (الآداب) . قال محققه : وأخرجه أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود وابن ماجه والترمذي في سننها ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح ، وأقره الذهبي .

ضابط العقوق :

ومدار ضابط عقوق الوالدين ، أو أحدهما ، كما قال ابن حجر الهيتمي ^(١) :
لو فعل معه ما يتأذى به تأذياً ليس بالهين عرفاً كان كبيرة ، وإن لم يكن محرماً لو فعل مع الغير .

« كأن يلقاه فيقطب في وجهه ، أو يقدّم عليه في ملأ ، فلا يقوم له ، ولا يعأ به ، ونحو ذلك مما يقضى أهل العقل والمروءة من أهل العرف بأنه مؤذٍ تأذياً عظيماً » .

ثانيا : أساسيات البر بعد وفاة أحدهما ، أو كليهما

يشبُّ بعضُ الناس وقد فقد أحد والديه في الصغر ، فيجب أن يقدم شيئاً لهما إكراماً وتعظيماً . أو قد يموت أحدهما في حياته ، فيجب أن يتابع البر ، فما هي أركان هذا البر بعد وفاة أحدهما ، أو كليهما ؟

من خلال التأمل في الأحاديث الشريفة نجد سبعة أركان ، وهي :

الأساس الأول : إنفاذ عهدهما ووصيتهما :

روى أبو داود والنسائي عن الشريد بن سويد الثقفي رضي الله عنه قال : إن أمه أوصته أن يعتق عنها رقبة مؤمنة ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أمي أوصت أن أعتق عنها رقبة مؤمنة ، وعندى جارية سوداء نوبية أفأعتقها ؟ فقال رسول

(١) الزواجر (٢/ ٧٣) .

الله ﷻ : « ادع بها » فدعوتها ، فجاءت ، فقال لها النبي ﷺ : « من ربك ؟ » قالت : الله ، قال : « فمن أنا ؟ » قالت : رسول الله ، قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » .

وروى أبو داود عن مالك بن ربيعة الساعدي رحمه الله قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ! هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتها ؟ فقال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما »^(١) .

فهذا حديث جامع لأغلب الأركان .

وقد يجد الابن صعوبات في تنفيذ الوصية ، ولكن صدق البر ، واليقين بالله تعالى وأن ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] مما يساعده للمسارعة إلى التنفيذ ، وهاك نموذجاً : أخرج البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال :

لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني ، فقممت إلى جنبه ، فقال : يا بني ، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم ، وإنني لا أراني إلا سأقتل مظلوماً ، وإن من كبير همي لِدَيْني أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئاً ؟ ثم قال : يا بني ، بع مالنا ، واقض ديني ، وأوصي بالثلث ، وثلثه لبنيه ، يعني : بني عبد الله ، قال : فإن فضل شيء من مالنا بعد قضاء الدين فثلثه لولدك ، قال عبد الله بن الزبير :

فجعل يوصيني بدينه ويقول : يا بني ، إن عجزت عن شيء منه فاستعن بمولاي ، قال : فوالله مادريت ما أراد حتى قلت : يا أبت ، من مولاك ؟ قال : الله ، فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت : يا مولاي الزبير ، اقض عنه دينه ، قال :

(١) ورواه الحاكم في المستدرک (٤/ ١٥٥) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح .

فقتل الزبير ولم يدع ديناراً أو درهماً إلا أرضين منها الغابة ، وإحدى عشرة داراً بالمدينة ، ودارين بالبصرة ، وداراً بالكوفة ، وداراً بمصر ، قاله : وإنما كان دينه الذى كان عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال ، فيستودعه وإياه ، فيقول الزبير : لا ، ولكن هو سلف ، فإننى أخشى عليه الضيعة ، وما ولى إمارة قط ، ولا جبايةً ، ولا خراجاً ، ولا شيئاً إلا أن يكون فى غزو مع رسول الله ﷺ أو مع أبى بكر وعمر وعثمان ، وقال عبد الله بن الزبير : فحسبت ما كان عليه من الدين ، فوجدته ألفى ألف ومائتى ألف ، قال : فلقى حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير فقال : يا بن أخى كم على أخى من الدين ؟

قال : فكتمته وقلت : مائة ألف ، فقال حكيم : والله ، ما أدرى أموالكم تسع هذه ، قال : فقال عبد الله : رأيتك إن كانت ألفى ألف ؟ قال : ما أراكم تطيقون هذا ، فإن عجزته عن شىء عنه فاستعينوا بى ، وكان الزبير قد اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف ، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف ، ثم قام فقال : من كان له على الزبير شىء فليوافنا بالغابة .

فأتاه عبد الله بن جعفر ، وكان له على الزبير أربعمائة ألف ، فقال لعبد الله : إن شئتم تركتها لكم ، قال عبد الله : لا ، قال : فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم ، فقال عبد الله : لا ، قال : فاقطعوا الى قطعة ، فقال عبد الله : لك من ها هنا إلى ها هنا ، قال : فباع عبد الله منها ، ففضى دينه ، وأوفاه ، وبقي منها أربعة أسهم ونصف ، قال : فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان ، والمنذر بن الزبير ، وابن زمعة ، قال : فقال له معاوية : كم قومت الغابة ؟ قال : كل سهم بمائة ألف قال : كم بقى منها ؟ قال : أربعة أسهم ونصف ، فقال المنذر بن الزبير : قد أخذت منها سهماً بمائة ألف ، وقال عمرو بن عثمان : قد أخذت سهماً بمائة ألف ، وقال ابن زمعة : قد أخذت سهماً بمائة ألف ، فقال معاوية : كم بقى ؟ قال : سهم ونصف ، قال : قد

أخذته بخمسين ومائة ألف .

قال : وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف قال : فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه ، قال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا ، قال : لا ، والله ، لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين ، ألا مَنْ كان له على الزبير دينٌ فليأتنا فلنقضه .

قال : فجعل كل سنة ينادى في الموسم ، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم ، ودفع الثلث ، قال : وكان للزبير أربع نسوة ، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف ، قال : فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف .

وهذا من عظيم البر الذي يقدمه الابن لوالديه ، مع اليقين ، والثقة بالله تعالى في تيسير أمر البر ، وتنفيذ عهديهما ، فجعلنى الله وإياك من البررة .

وهذا نموذج ثانٍ في إنفاذ الابن وصية والده ، ولو على حساب رغباته وشهواته ، إنها وصية رعاية الأخوات بعد وفاة الوالد ، وحسن تربيتهن :

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما حضر أحدٌ (أى حضر واقترَب موعد غزوة أحد) دعانى أبى من الليل ، فقال : ما أرانى إلا مقتولاً فى أول من يقتل من أصحاب النبى ﷺ وإنى لا أترك بعدى ؛ أعزّ على منك ، غير نفس رسول الله ﷺ وإن على ديناً فاقض ، واستوص بأخواتك خيراً ، فأصبحنا ، فكان أول قتيل ، ودفنه مع آخر فى قبر . قال ملا على القارى فى شرح المشكاة (١١ / ٧٢٢) : كان له تسع أخوات ، ودفن والده مع عمرو بن الجموح ، وكان صديق والد جابر ، وزوج أخته .

فماذا عن جابر بوصية والده بأخواته التسع :

أخرج الخمسة عن جابر فى حديث طويل : أنه قال لرسول الله ﷺ حين سأله :

«هل تزوجت بكراً أم ثيباً؟» قال : بل ثيباً ، قال : «هلا بكراً تُلَاعِبُها وتُلَاعِبُكَ؟»
فقلت : يا رسول الله ﷺ ، تُوفى والدي ، ولى أخوات صغار . فكرهتُ أن أتزوج
مثلهن ، فلا تؤدبهن ؛ ولا تقوم عليهن ، فتزوجت ثيباً ؛ لتقوم عليهن وتؤدبهن .

ذلك الوفاء الصادق ، وتلك النية الصادقة الطاهرة ، تهدي الإنسان لأحسن
الأفكار والآراء ، ولو تنازل هو عن شيء من رغباته إلا أنه أنقذ أخواته ، فكان
الهدف نبيلًا والغاية نبيلة .

الأساس الثاني :الدعاء ، والاستغفار لهما :

روى البخارى فى «الأدب المفرد» عن محمد بن سيرين قال : كنا عند أبى
هريرة رضي الله عنه فقال : اللهم اغفر لأبى هريرة ، ولأمه ، ولمن استغفر لهما . قال محمد :
فنحن نستغفر لهما حتى ندخل فى دعوة أبى هريرة رضي الله عنه .

وقد تقدم الحديث : «الصلاة عليهما والاستغفار لهما» والصلاة هنا : الدعاء لهما .
وفى الحديث : «وولد صالح يدعو له» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل ليرفع الدرجة
للعبد الصالح فى الجنة فيقول : يا رب ، أنى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك»
رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، ورجاهما رجال الصحيح غير عاصم ابن بهدلة ،
وقد وثق ، كذا قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢١٠) .

الأساس الثالث : صلة رحمهما ، وبرّ أصدقائهما :

روى مسلم^(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له
حمارٌ يترَوَّح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة ، وعمامة يشدُّ بها رأسه ، فيبينها هو يوماً على
ذلك الحمار ؛ إذ مرَّ به أعرابىٌّ فقال : ألسنت ابن فلان ؟ ! قال : بلى ، فأعطاه الحمار ،

(١) ورواه أحمد والبخارى فى (الأدب المفرد) وأبو داود والترمذى . انظر : صحيح الجامع رقم (١٥٢٥) .

فقال : اركب هذا ، وخذ العمامة ، وقال : اشدد بها رأسك ، فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك ، أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يولّى» وإن أباه كان وداً لعمر .

وقد تقدم الحديث : «وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقيهما» .
وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي بُردة قال : قدمت المدينة ، فأتاني عبد الله ابن عمر فقال : أتدري لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أحبَّ أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده» وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وودّ ، فأحببتُ أن أصل ذاك^(١) .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «احفظ وُدَّ أبيك لا تقطعه ، فيطفى الله نورك» . رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن ، كذا قال الهيثمي في المجمع (١٤٧/٨) .

الأساس الرابع : الصدقة عليهما :

روى الشيخان والنسائي وأبو داود عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلاً قال للنبي ﷺ إن أمى توفيت ، أينفعها إن تصدقتُ عنها ؟ قال : «نعم» ، قال : فإن لى مخرفاً فأنا أشهدك أنى تصدّقت به عنها .

وأخرج الجماعة إلا الترمذى عن عائشة - رضى الله عنها - أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : إن أمى افتلّت نفسها ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، لها أجر إن تصدقت عنها ؟ فقال : «نعم» . ورواه ابن خزيمة في صحيحه (١٢٤/٤) .

وروى الطبراني في الأوسط : أن رسول الله ﷺ قال : «ما على أحد إذا أراد أن

(١) ورواه أبو يعلى . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٣٢) .

يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين ، فيكون لوالديه أجرها ، ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء .

وروى مالك والنسائي ، عن سعيد بن عمرو بن شرحبيل بن سعد بن عباد ، عن أبيه ، عن جده ، قال : خرج سعد بن عباد مع النبي ﷺ في بعض مغازيه ، وحضرت أمه الوفاة في المدينة ، فقبل لها : أوصي ، فقالت : فيم أوصي ؟ المال مأل سعد ، فتوفيت قبل أن يقدم سعد ، فلما قدم سعد ذكر ذلك له ، فقال : يا رسول الله ، هل ينفعها أن أتصدق عنها ؟ فقال النبي ﷺ : « نعم » فقال سعد : حائط ^(١) كذا وكذا صدقة عنها ، الحائط سماء . وعن أبي هريرة ؓ أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبى مات ، وترك مالا ، ولم يوص ، فهل يكفر عنه إن تصدقت عنه ؟ فقال : « نعم » . رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٢٣/٤) بسند صحيح .

الماء أفضل الصدقة عليهما :

روى أبو داود والنسائي عن سعد بن عباد ؓ قال : قلت : يا رسول الله ، إن أمى ماتت ، فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « الماء » فحفر بئراً ، وقال : هذه لأم سعد . وعن جابر بن عبد الله ؓ عن رسول الله ﷺ قال : « من حفر ماء لم يشرب منه كبد حرى من جن ولا إنس ولا طائر إلا أجره الله يوم القيامة ، ومن بنى مسجداً كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة » . رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٦٩/٢) قال المحقق مصطفى الأعظمي : إسناده صحيح ، ورواه ابن ماجه .

الأساس الخامس : الحج عنهما :

عن أبي رزين ؓ أنه قال : يا رسول الله ، أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج والعمرة ولا الظعن ، قال : « حُجَّ عن أبيك ، واعتمر » رواه الحاكم في مستدركه

(١) الحائط : أى البستان .

(١/ ٤٨١) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : إن أبي مات ، ولم يحج حجة الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت تقضيه عنه؟» قال : نعم . قال : «فإنه دين عليه فاقضه» رواه البزار ، والطبراني في الأوسط والكبير ، وإسناده حسن ، قاله الهيثمي في المجمع : (٢٨٢/٣) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول : قال فلان الجهني : يا رسول الله ، إن أبي مات ، وهو شيخ كبير لم يحج ، أو لا يستطيع الحج ، قال : «حج عن أبيك» رواه ابن خزيمة في صحيحه (٣٤٣/٤) وإسناده صحيح .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا حج الرجل عن والديه تقبل الله منه ومنهما ، واستبشرت أرواحهما في السماء ، وكتب عند الله باراً» . رواه الدارقطني (٢/ ٢٦١) وقال العزیزی فی شرح الجامع الصغير : هذا حديث صحيح .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : أتى رسول الله ﷺ رجل فقال له : إن أبي مات ، وعليه حج الإسلام ، فأحج عنه ؟ قال : «أرأيت لو أن أباك ترك ديناً عليه أقضيته عنه ؟» قال : نعم ، قال : «احجج عن أبيك» . رواه الدارقطني (٢/ ٢٦٠) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من حجَّ عن أبيه وأمه فقد قضى عنه حجَّته ، وكان له فضل عشر حجج» . رواه الدارقطني (٢/ ٢٦٠) .

الأساس السادس : المسارعة للعمل الصالح لإدخال السرور عليها :

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند آية : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] قال : وقد ورد أن أعمال الأحياء تُعرض

على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ ، ثم أورد حديث أبي داود الطيالسي بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك» .

ثم أورد حديث الإمام أحمد بإسناده عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تُمَتِّهم حتى تهديهم كما هديتنا» .

وروى الإمام ابن المبارك بإسناده عن أبي الدرداء أنه كان يقول : إن أعمالكم تُعرض على أمواتكم فيسرون ويسوون ، ثم يقول : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند خالي عبد الله بن رواحة .

وعن النبي ﷺ : أنه قال : «تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله - تعالى ، وتُعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيفرحون بحسناتهم ، وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً ، فاتقوا الله ، ولا تؤذوا موتاكم» ^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً علمه ونشره ، أو ولداً صالحاً تركه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً كراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته» .

رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٢١ / ٤) بسند حسن لغيره لشواهد ، وقد تقدم معنا في الحديث الصحيح : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث :

(١) وأورده في الجامع الصغير ، وقال : رواه الحكيم الترمذي عن والد عبد العزيز ، رامزاً إلى حسنه ، هكذا قاله الشيخ عبد الله سراج في كتابه (الإيمان بعوالم الآخرة) (ص : ٩٦) .

صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم وابن خزيمة في صحيحه ، ورواه أحمد (٣٧٢ / ٢) . ورزقنى الله وإياك هذه الخصال الثلاث ، ووفقنى الله وإياك لطاعته ، ومرضاته .

الأساس السابع : زيارة قبريها :

روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : زار النبي ﷺ قبر أمه ، فبكى ، وأبكى من حوله ، فقال : «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» .

وعن ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه ، فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة» . رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية الحاكم في مستدركه (٣٧٥ / ١) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي : زار النبي ﷺ قبر أمه في ألف مقنع ، فلم ير باكيًا أكثر من يومئذ .

الأساس الثامن : برّ قسميها ، وألا تستسبّ لهما :

عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من برّ قسميها ، وقضى دينها ، ولم يستسب لهما كُتِبَ بارًا وإن كان عاقاً في حياته . ومن لم يبر قسميها ، ويقضى دينها ، واستسبّ لهما كُتِبَ عاقاً وإن كان باراً في حياته» رواه الطبرانى في الأوسط ، وسكت الهيثمى في المجمع (١٤٧ / ٨) عن سنده .

الأساس التاسع : الصوم عنهما :

عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمى

توفيت وعليها صوم شهرين ، فقال : «صومي عنها» فقالت : إن عليها حجةً قال :
«فحجّي عنها» قالت : فإنني تصدقت عليها بجارية ، فقال : «قد آجرك الله ، وردّها
عليك الميراث» رواه الحاكم في مستدركه (٣٤٧ / ٤) وقال : صحيح الإسناد ، ولم
يخرجاه ، وأقره الذهبي .

* * *